ضجرتْ منّي الحيطان

إلى جدران فيروز وزها وأمي وشهرزاد

أحمد سكّر*

نزوة جدار (Wall Capriccioso) مع ثلاث نساء شرقيّات: شهرزاد وفيروز وزها. هديّة وائل السمهوري، ٢٠٠٩.

يروي شُكرْزاد، وهو طالبُ سنة أولى في كليّة العمارة، علاقته بالجدران منذ طفولته، وما يخصّ آماله المستقبليّة. تمسّ رؤاه المعماريّة، أثناء استحالته جداراً، موضوعات كالفنّ والسياسة والمرأة. جدرانُه تحبّ وتكره، تتكلّم وتبعث برسائل إلكترونيّة، تحيا وتموت وتعيش حياةً عائليّةً ملؤها الحبُّ والسعادة. ما سبب «الفشل المعماريّ» لزها حديد؟ ما سرّ ضجر الحيطان من فيروز؟ هل سيتحوّل شُكرْزاد إلى جدار؟ لنستمعْ إلى جداره يروي قصته.

* - بكالوريوس ودبلوم من كليّة العمارة في جامعة دمشق، وماجستير في العمارة والعمران في مخبر البحث التصميميّ التابع للرابطة المعماريّة في لندن، وماجستير دراسات ثقافيّة وإنسانيّة في المَجْمَع اللندنيّ (جامعة لندن) حيث يعدّ أطروحة الدكتوراه عن **الجسم والعمارة في التراث الإسلاميّ**. والمقالة أعلاه متأثّرة بمادّةٍ تعليميّةٍ في المَجمع المذكور بعنوان «الاستحالة: من أوفيد إلى كرونينبيرغ» (٢٠٠٦). وهي إعادة كتابة عربيّة طُوِّرتْ بالتوازي مع مقالةٍ لي بالإنكليزيّة تعتمد الكتابة الخياليّة، وأخرى أكاديميّة مقدّمة إلى مادّة تعليميّة في المَجمع، ٢٠٠٧، بعنوان «المفكّرون، قيِّموا المتاحف، المتاحف.» تقدير لمارك كزن على المناقشات معه، وجزيل الشُّكر لدعم المَجمع، ولجميع مَن أوردَ ملاحظاته، وخصوصًا روان سكّر على التدقيق اللغويّ، ووائل السمهوري على هديّة الاستحالة الجدارية وعامر حسين وحنان الشيخ على التشجيع.

مرّةً كنتُ جالسًا وحدي في سكني الذي لم أشعرْ فيه بالوحدة يومًا. لم يكن يسكنه أحدٌ سواي، لكنّ سكوني لم يكن سوى سكون العدم. من عدم عدمي نظرتُ في وجودي، فوجدتُه ساكنًا بجدار. لم يكن وقتَها التفكيرُ في العدم متمايزًا من عدم التفكير.(١)

معارض الجدران

يوجد معرض كلّما وُجد جدار. لكنْ ليست كلُّ معارض الجدران جميلةً. جدرانٌ قليلةٌ فحسبُ تعرِض الفنَّ بشكلٍ لائق؛ ذلك أنّها اعتادت أن تعالج مواضيعَ السياسة أكثر من مواضيع الفنّ والعمارة. تُشارك الجدرانُ في الأحاديث السياسيّة، مع أنها لا تتكلّم. فإذا أردْتَ أن تسمعَ أحاديثَ الجدران، توقّفْ عن النظر إليها واندمجْ بها. استدرْ جانبًا عوضًا من مقابلتها، واقتربْ... (أقرب)... (أقرب)... هذه هي المرّة الأولى التي لن تستطيعَ فيها... (أقرب)... أذنُكَ السمعَ... (أقرب)... ما لم تلمس الفمَ.(٢) لا ترتعبْ! فالجدران ليست لها أفواه؛ إنّها مجرّدُ وجوهٍ ممسوحة. بل ليس للجدران أعضاء؛ إنّها مجرّدُ أبدانٍ بأطرافٍ مبتورة.(٣)

أنواع الجدران

أسمعتَ شيئًا الآن؟ إنْ لم تسمع، فلعلّكَ لم تقتربْ كفايةً. اقتربْ ولا تخف. ولكنْ كنْ حذرًا؛ فقد تكون عاطفيّة. ليست الجدران العاطفيّة خطيرةً، لكنّها متعِبة بثرثرتها؛ فإن اقتربَ أحدٌ منها وصادَفَها، لم تكُفّ عن الكلام معه وعليه. ومن غرائب صفاتها أنّها لا تبدو مكترثةً بأحد، وأنها تبقى صامتةً لتوهمكَ بمظهرها الساكن.

موادّ بنائيّة

تسألني: «وكيف لي أن أعْلمَ إنْ كان جداري عاطفيًا؟» حسنًا، إنّه عاطفيٌّ بقدْر ما يبدو قاسيًا. حاولْ أن تستمع إليه (أو إليها)، عوضًا من النظر إليه (أو إليها). أسمعتَ شيئًا الآن؟ إذا أحسستَ أنّك على وشك أن تسمعَ شيئًا، فلا تتنصّتْ إلى أحاديث الجدران؛ فلربما أخبرتْكَ بما لا ينبغي أن تعرفه. الجدران شاطرة في نقل الإشاعات. وإشاعاتُها لا تأتي إليك، بل تأخذكَ إليها. فاحذرْ أن تسحبكَ في اتجاهها عندما تكون مستغرقًا. ولكنْ لا تقلقْ إنْ أصبحتَ جدارًا.

استحالة تجدُّريّة؟

لا تستطيع أن تصبح جدارًا. كلّ التّحولات فاشلة. عندما يتحوّل شيءٌ ما، فإنّه يتحول خيبةً لِما كان عليه. لم يكن الإنسانُ جدارًا ولن يكون. كلُّ ما في الأمر أن تتخيّل أنّك تتحوّر إلى جدار. فلنصبحْ جدرانًا، لأنّ ذلك تحوُّر آمنٌ واستحالةٌ مستحيلة. إنّ تقمُّص شخصيّة جدارَ لَهْوُ متعةٍ وفائدة.

أنا الجدار

لن تفقدَ هويّتكَ إنْ أصبحتَ جدارًا، إذ ستبقى على الأقلّ قادرًا على مبادلة المحبّة. ولكنّ الجدران ـ على كونها من القلائل الذين يعرفون المعنى الحقيقيّ للحبّ ـ لا تتزوّج. ولِمَ تتزوّج إذا كانت تملك في الأصل أُسَرًا مكوّنةً من آباءٍ وأبناء؟ نعم، تتكوّن الأسرة الجداريّة وسطيًا من سقفٍ وأرضٍ وأربعة جدران، يحبُّون بعضهم بعضًا كثيرًا، ويتعاونون دائمًا على توطيد بنية أُسرهم. ولكنْ، لا تظنّنّ أنّ السقفَ والأرضَ من أهل الجدران، لأنّ الجدران ليست أطفالاً. ومع أنّها تعيش ضِمن أُسَرِنا، فإنّ هذه لا تتبنّاها. إنّ الجدران هي الأمواتُ الذين يعيشون مع الأحياء بمودّةٍ وخفاء.

إنشاءاتٌ جداريّة

هذه الجدران التي تعيش معنا وفينا ليست عناصرَ طبيعيّة. فالطبيعة لا تُوجِد جدرانًا. الطبيعة، كما نراها، سقفٌ وأرضيّة. وهي بالنسبة إلى غالبيّة الناس مجرّدُ أرضيّة. تشير بعضُ الأديان إلى وجود عدّة طبقاتٍ أرضيّةٍ وسقفيّة. فالأرضيّة تحاكي الأرض، والسقفُ يحاكي السماءَ، ولكنْ لا مقابلَ طبيعيًا للجدران. ما نعرفه عن الجدار أنّه اختراعٌ بشريٌّ بمقياس إنسانيّ. ما قد تراه جدارًا في الطبيعة ليس جدارًا؛ فالجبال مثلاً تشبه الجدرانَ لكنها ليست إيّاها، إذ هي أكثرُ ارتفاعًا وانبساطًا من أن تُعتبر كذلك. الاختلاف بين الجدران من ناحية، والسقفِ والأرضيّة من

---

١ ـ قبل قراءة النص استمعْ إلى الدقائق الأربع الأولى من:
Franz Liszt, "I. Faust," (conductor, Leonard Bernstein, Boston Symphony Orchestra), in Liszt: **Eine Faust-Symphonie** (Hamburg: Polydor International GmbH, 1977).

٢ ـ Alexander Borodin, "Polovtsian Dance," (conductor, Arthur Fiedler, Boston Pops Orchestra), in: Rimsky-Korsakov, **Russian Easter Overture;** Borodin, **In the Steppes of Central Asia, Prince Igor: Overture, Polovtsian Dances** (New York: BMG Music, 1988).

٣ ـ Gilles Deleuze and Félix Quattari, "November 28, 1947: How Do You Make Yourself a Body Without Organs?" in Deleuze and Quattari, **A Thousand Plateaus: Capitalism and Schizophrenia** (London & New York: Continuum, 2004), 165-184.

٤ ـ Gilles Deleuze and Félix Quattari, "1730: Becoming-Intense, Becoming-Animal, Becoming-Imperceptible . . ." in Deleuze and Quattari, Ibid, 256-341.

ناحيةٍ أخرى، ليس مجرّدَ اختلافٍ بين الشاقول والأفق، بل هو تباينٌ بين الوجود المادّيّ والوجود الرُّوحيّ.

صدى الجدران

إذا اعتقدتَ مرّةً أنّ الجدران القائمة بيننا أمواتٌ، فتأكّدْ أنّهم الأمواتُ الذين لم يعيشوا يومًا. لكنّ الجدران تنتصب حيّةً في حياتنا. انظرْ حولك: إذا كنتَ حيًا فالجدرانُ حيّةٌ محيطةٌ بك. عندما يموت الإنسان تموت جدرانُه معه. يتوقّف عن الأنين، فتتوقّف جدرانُه عن العويل. يتلاشى الصوتُ والصّدى معًا.

«وينون... وينون وينون وينون... ركبوا عربيات الوقت وهربوا بالنسيان. وتركوا ضحكات ولادن منسيّة عالحيطان... وينون... وينون وينون وينون.»

لكنّ الجدران لا تموت كالإنسان (فهي ميّتة أصلاً)، بل تتحوّل إلى أرض أو سقف. وهي لا تتحوّل طوعيًا إلاّ عندما تُغلِّف الأمواتَ، وإلاّ أُجبرها الإنسانُ على التحوّل. انظرْ إلى ما يفعله معماريّو هذه الأيّام عندما يغلِّفون بحاويات الأجسام مَن كانوا أحياء.

عمارة اللاجدران

العديد من معماريّي الحداثة يَدْمجون الجدرانَ بالأسقف والأرضيّات ضمن ما يسمُّونه «تصاميمَ عضويّة،» ويدّعون أنّهم يحرِّرون العمارةَ من المجسّمات الإقليديّة. يا ليت شعري، من أين لهؤلاء معرفة الجدران؟ إنّ ما يسمّى مجسّمًا إقليديًا هو عبارةٌ عن أسطحٍ شاقوليّةٍ وأفقيّة، تسمّى جدرانًا وأسقفًا وأرضيّاتٍ مادام الإنسانُ داخل حيّزها. وتعود هذه الأسطح المحيطيّة إلى وضعها الأصليّ كأسطحٍ من مجسّمات إقليديّة عندما يغادرها الإنسانُ. لذا فالكفن مجسّمٌ إقليديٌّ بحت، كالمكعّب الأبيض. أمّا المنازل فليست أصلاً مجسّماتٍ إقليديّة. إنّها أسقفٌ وجدرانٌ وأرضيّاتٌ حيّة. فالمكان فيها بالنّاس، لا بالأساس أو الأثاث.

جدار أمْ قناع؟

للجدران وجوهٌ فقط، لا خلفيّات. ولكلّ جدارٍ وجهان. إذا نظرتَ إلى أيٍّ منهما فلربّما اعتقدتَ أنّه الوجه، وأنّ الجهة الأخرى هي الخلف. هذه ليست حالَ الإنسان؛ فله وجهٌ واحد فقط. لكنّ وجهَه، خلافًا لبراءة وجوه الجدران، مكوّنٌ من عدّة أقنعةٍ متراكمة.

الحيطان دفاتر

إنْ كنتَ تسمعني أخبرْني إنْ كنت جدارًا. أعْلِمْني إنْ كنتَ تحلم بأن تصبح إنسانًا. أريد أن أفهمكَ بشكلٍ أفضل. أن أقرأكَ. أن أكتبكَ. أن أعْلم إنْ كنتَ تشعر بالسّعادة وبمحبّة بعض البشر لك. أن أصاحبكَ صحبةً حقيقيّة؛ أتقْبلني صديقًا؟ أها... لا... شكرًا... عفوًا، ماذا تقول؟ حقًا! متى؟ أين؟ لماذا؟ مَنْ قال هذا؟ يا إلهي! الآن أعْلم، الآن أصبحت... آه يا عزيزي، ليتكَ لم تُقرِّئْني الحقيقة.

جداريّاتٌ فيروزيّة

لِمَ ضجرتِ من البشر أيّتها الجدران؟ لِمَ لا تصارحينهم كما تصارحين فيروز؟ أيمكن أن تكوني ضجرةً من فيروز، ومنها وحدها؟ أخبرتني فيروز عن هذا يومًا؛ قالت: «...صارلي شي ميّة سنه مشلوحه بهالدكّان، ضجرتْ مني الحيطان... نطرت مواعيد الأرض وما حدا نطرني...» إذا ضجرتِ يومًا من فيروز، فكيف حالكِ مع باقي البشر؟ أيّتها الجدران، لقد ظننتُ أنّني ضجرٌ منكِ يومًا، لكنّني اكتشفتُ أنّكِ ضجرةٌ منّي دومًا.

الجدران الزاهية

لا تظنّنّ أنّ عليكَ أن تكون معماريًا كي تحبّكَ الجدرانُ وتبوحَ لك بأسرارها! ألا تعْلم أنّ أغلب الجدران لا يحبُّ المعماريّين؟ مأساةٌ ألاّ يبادلَ جدارٌ معماريًا أو معماريّةً حبَّهما. لكنْ لا تكْرهْ كلَّ الجدران كلَّ المعماريّين؛ فالجدرانُ في الغالب تحبُّ المعماريّات. أما سمعتَ بزها حديد؟ الجدران تحبُّ زها، قدْرَ محبّةِ زها إيّاها. قد يكون هذا هو سببَ تفوّق زها في العَمارة. يبدو أنّ للنساء حظًا أوفرَ من الرّجال ضمن هذا الجدار/ آآ... ضمن هذا المجال.

غريمي الجداريّ

قد تحبُّ الجدرانُ معماريّةً ما لأنّها تحبُّ المعماريّات عامّةً كما ذكرنا؛ فالنساء اعتدن أن يعتنين بالجدران أكثرَ ممّا يفعل الرّجال. ولقد اعتدن ذلك عصورًا طويلة: كنّ ينظِّفن الجدرانَ ويهبنها كلَّ أشيائهنّ. كانت جدّتي مثلاً تعلِّق كلّ حاجيّاتها على الجدران، وكنتُ أغار لأنّها لا تهبني أكثر من معلّقةٍ واحدة من جدارها الخصب كلّما زرتُها.

«بيتك يا ستّي الختيارة بيذكّرني ببيت ستّي، تبقى ترندحلي أشعارها والدنيا عمبتشتّي. بيوك وفرشات وديوان عتق الباب وهالحيطان....»

ما كان أسعدَ جدّتي بكثرة أشيائها على الجدران، وبها كانت تَعدّ الأيّامَ وزياراتي إليها. وكم كانت تغمرني نشوةُ الانتصار كلّما انتزعتْ جدّتي هديّتي من غريمي الجداريّ. وكم تناقضتْ نشوتي قبيل النصر الساحق على جدارها مع شعوري بالذّنب إثر سماع آخر حكاياتها عن عجوزٍ كانت تَعدُّ بآخر أشيائها الجداريّة آخِرَ أيّامها وزيارات حفيدها إليها. كم تمنّيتُ لو أستطيع ردَّ الاعتبار إلى جدار جدّتي المتهاوي.

نظريّة الجدران

لكنّ أمّي، خلافًا لجدّتي، لا تحبُّ تعليقَ أيِّ شيء على الجدران، كالملابس واللوحات وصور الأولاد وشهاداتهم. لأمّي نظريّتُها

أنا الجدار (iWall). **ضجرتْ منّي الحيطان**، في الجامعة الدوليّة للعلوم والتكنولوجيا، دمشق، ٢٠٠٩.

الخاصّة التي استشفَّ منها ميس فان دي روه إحدى أهمِّ نظريّات العمارة: «الأقلّ أكثر» (Less is more).

معماريّات الجدران

عندما كنتُ صغيرًا، اعتادت أمّي أن تقول لي ولإخوتي: «أرجوكم، لا تعلِّقوا الكثيرَ من ملابسكم المدرسيّة على الجدران.» لكنني كنتُ أشعر أنّ من الأفضل أن نعلِّقها كلَّها على الجدران لنحصلَ على مساحةٍ أوسعَ من الأرض وسطح السرير؛ فقد كان بيتنا صغيرًا جدًا، ولكنّه كان مليئًا بالجدران.

كانت أمّي تحبُّ ألاّ نعلِّق على الجدران كما ذكرتُ، لولا أنّها تفضّل أن توازنَ بين محبّتها للجدران الخالية وعشقِ والدي للجدران المتباهية بكلّ شهادة ولدٍ جديدةٍ. كانت أمّي تنزعج لتخيُّل مسمارٍ يُدقّ في جدار، أمّا والدي فلم يفوِّت فرصةً للتعليق على الجدران. وكان فخورًا بي لقدرتي على أن أخبره أين يجب أن يدقَّ المسمارَ؛ فحسابُ مكان الدَّق يتطلَّب أخذَ الكثير من الاعتبارات: كمجال فتحة الشُّباك المجاور، وارتفاع السّرير والخزانة السفليّة، وحجم المعلَّقة. لقد شعرتُ حينها أنّ لوالدي كاملَ الحقّ في ممارسة هوايته في التعليق على الجدران. ومن حينها أصبح «التعليقُ على الجدران» إحدى أمتع هواياتي المعماريّة الأدبيّة المتوارَثة. أمّا حسابُ مكان الدّق فقد أصبح أكثرَ من هواية.

فلسفة الطفولة

اعتادت أمّي أن تقول لي إنّ الملابس تتّسخ حين نعلِّقها على الجدران. لكنّني لاحظتُ أنّ ملابسي لا تتّسخ إلاّ عندما ألبَسها. ثم قرأتُ بعد بضعة عقودٍ تعريفًا للأوساخ، وهو أنّها «أشياء ليست في مكانها.»[1] فأدركتُ أنّ الملابس أو معلَّقاتِ الجدران ليست هي المتّسخة، بل أمكنتها المَرئيّة على الجدار. إنّ مكانها النظيف هو خزائنُ الثياب، أمّا الجدران فيجب أن تبقى مطهَّرة.

١ ـ هذه إحدى مقولات ماري دوغلاس التي يشرحها مارك كزن بأنّ «ما يجعل الوسخَ وسخًا ليس مادّته بحدّ ذاتها، كما نعتقد عمومًا، وإنّما وجودها في المكان الخطأ.» راجعْ:

Mary Douglas, **Purity and Danger: An Analysis of Concepts of Pollution and Taboo** (London and New York: Routledge, 2003), 44, 50, 203; Mark Cousins, "The Ugly." **AA Files**, 28 (1994), 63.

لقد أحبَّت والدتي أن تكون جدرانُ بيتنا نظيفةً بل طاهرة، وكأنّ بيتنا معْرضٌ لعمارةٍ مقدّسة. إنّ والدتي معماريّة بامتياز، مع أنّها لم تدرس العمارةَ.

الحُبُّ المعماريّ

لكنّ والدتي لا تحبُّ الجدران في ذاتها، بل تحبُّ فقط أن تكون ملابسُنا والفضاءاتُ البرزخيّة بينها نقيّةً. ولو أحبَّتها يومًا في ذاتها، لكانت ربّما أكثرَ المعماريّين شهرةً، بمن فيهم زَها حديد.

أحبُّ الجدران كثيرًا، غير أنّها لم تُخبرْني بعدُ إنْ كانت تُبادلني الحبّ. لقد أقمنا صداقتنا منذ بضع سنين. أتمنّى لو تُحبّني أكثرَ من حُبِّها لزَها، بل لأمّي أيضًا. أعْلمُ أنّ عليّ أن أصبر: فالجدران لا تُظهر عواطفَها بسهولة. يجب أن نقتربَ منها قدر استطاعتنا، دون أن نُضجرها كما فعلتْ فيروز. ولكنْ، إنْ لم تُحبّني الجدرانُ فلا همَّ، لأنّ هذا لا يعني أنّني قد لا أصبح مهندسًا معماريًا ناجحًا في المستقبل، بل قد تكون لذلك ثلاثةُ أسباب: أوّلها أنّني معماريٌّ، وثالثها أنّني ذَكر؛ أما ثانيها فلا يعْلمه إلاّ الجدران عن نفسها.

صدمة وصدع

لاحظتُ مرّةً شقًا في جداري. اقتربتُ منه وابتعدتُ عنه. كنتُ قلقًا عليه، بل خائفًا منه؛ فأنا أخشى تصدُّعات الجدران لأنها حين تنمو تهدِّد حياةَ المحيطين بها. شعرتُ أنّ جداري كان منزعجًا جدًا. عندما تحْزن الجدرانُ تصبح خطرة. تبقى صامتة لكنها تباشر التّحور: تَبرز أفواهٌ من وجوهها المسوحة، وإذا وضعتَ أذُنَك عليها فستسمع صوتَها. لا تفعلْ ذلك، ولا تنظرْ من خلال شقوقها، بل لا تقتربْ منها. فعندما تموت الجدران فإنّها لا تحبُّ أن تموت وحدها بسلام، بل تقتل الناسَ من حولها. الجدران خطرة حقًا. شربُها ورقصُها وترنُّحها مع حنجلة الأرض تتمُّ في حفلة الشّيطان. إذا لاحظتَ تشقُّقًا في جدار، فحاولْ معالجتَه سريعًا. لا تنتظرْ حتى يكبر. وراجعْ تصرُّفاتِكَ مع جيرانك الجدران وجدرانِ الجدران: هل أدّيت حقوقَ جدار جارك السابع؟

ترميمات

تولد الجدرانُ ميِّتةً، لذا تتوجّب زيارتُها مرّةً أو مرّتين في السّنة. اِسقِها الماءَ، لا من أفواهها، بل رشًا على أكفانها، لتتيح نموَّ أزهار أجسادها. لا تسبِّبُ الأزهارُ الناميةُ على الجدران تصدُّعَها، بل هي تَلحُمُ تشقُّقاتِها بمهارة، تمامًا كما يفعل مرمِّمو الجدران الأثريّة البارعون. أما وجودُ الشقوق فناتجٌ من غياب مَن يساعد تلك الورودَ الجميلةَ في عملها النبيل هذا. هذه الأزهار رقيقة وتحتاج مساعدتك. استمعْ إليها تغنّي عوضًا مِن قطعها. مُدَّ لها يدَ العون. شاركْها الصلاةَ وتقبيلَ الجدران:

«.. خِدني زرعني بأرض لبنان، بالبيت يلّي ناطر التلّة. افتح الباب وبوِّس الحيطان، واركعْ تحت أحلى سما وصلِّ.»

الإلكتروجدار

حاولتُ أن أعرفَ سببَ وجود شقٍّ في جداري، لكنّني لم أسأله لأنّني أعْلم أنّني لن أحصل على إجابة. وبعد أيّام وصلتني الرسالة الإلكتروجداريّة الآتية[٢]:

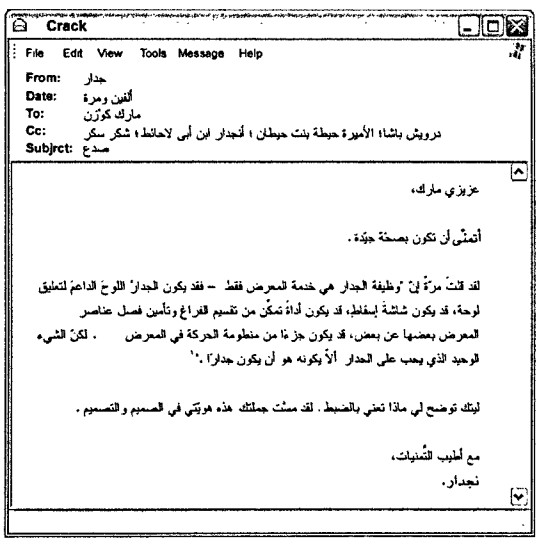

ارتبكتُ بعد تلقّي الرسالة، إذ كنتُ أقرأ **قصصَ ألف جدار وجدار** وأكتب مقالةً عن العمارة والمتاحف. إذا لم تكن الجدرانُ جدرانًا، فماذا تكون؟ إذا كنتَ حيطًا، فهل لكَ أن تجيبني؟

ولكنْ، من أنت؟ ولِمَ ظهرتَ الآن؟ ما أردتُ استفزازَكَ بسؤالي، ولم يكن الحديثُ موجّهًا إليك بل إلى جدرانك من حولك. عفوك، عفوك، عفوك ك ك ك... وسكتتْ جدرانُ شُكرْزاد عن الكلام المباح.

لندن ـ دمشق

١ ـ Mark Cousins, **Notes on the Art Gallery/Museum**, nd. http://www.usc.edu/dept/comp-lit/tympanum/3/cousins.html (accessed March 28, 2010)